

كان يتكلم في تليفون الدُّكَان بصوت مُرتفع، وجعل يميل بنصفه الأعلى داخل الدُّكَان ليبعد ما أمكن عن الضوضاء، طويلاً القامة نحيلها ورويَ الجبهة والعينين. مُكَوِّر الذقن وأما صلعته فلم يبقي فوق مرأتها إلا جذور شعر أبيض مثل منابت شعر ذقنه، علي ذلك كان يتمتع بحيوية مرحة وتلتمع عيناه بنشاط وابتهاج. ويداً أنه ينظر إلى الداخل لا إلى الطريق ثم مال يمنة بمحاذة صف من اللوريَّات الواقفة نسق التوار حتى وجد منفذًا إلى الشارع، وما كاد يجاوز مُقدمة اللوري الأخير حتى شعر بسيارة فورد تندفع نحوه بسرعة فائقة. وقال أحد الشهود فيما بعد إنه كان عليه أن يتراجع بسرعة وإنه لو فعل ذلك لنجا رغم سرعة السيارة، ندت عن الرجل صرخة كالعلوّاء وفي ذات الوقت انطلقت صرخات الفزع من المارة الواقفين على التوار، حتى تكون منهم سور غليظ منيع وانتشر في المنطقة الهرج، وقد فقدت حذانيها، الرجل وهو يرتفع في الفضاء امتاراً ثم يهوي فوق الأرض كشيء، وبسرعة وبدون أن ينظر إلى يساره كما يجب، وإذا لم يجد وجهًا مستجيبًا عاد ليقول بلهجة خطابية: "لم يكن بإمكانني تفادي الصدمة". لكنه طار في الهواء والعياز بالله" وجاء شرطي مسرعاً وفتح له وقع قدميه ثغرة في السور الآمني، خطوات فقط وعيهم لا تحول عن الرجل ولا تخفي حدة تطلعها وإشفاقها وقال إنسان: "سيبقي هكذا حتى يموت ونحن لا نفعل شيئاً" وبوليس النجدة والإسعاف في الطريق إليه" واعتراض الحادث جانب الطريق واضطربت السيارات إلى الإلتلاف حول السور البشري مشاركة الترام في ممشاذه. فضاق بها حتى تحركت في بطء شديد وتجمعت في صفوف متعددة ومتدخلة وهي تصرخ وتعوي بلا فائدة، ومن ركابها تطلعت أعين إلى الضحية في اهتمام وأعين تجنبت النظر في جذع. وجاء بوليس النجدة وراء صفارته الحلوذنية فاتسعت الحلقة وغادرت القوة السيارة إلى الرجل الملقي وكان الضابط حاسماً وحازماً، فأصدر أمراً بتفریق المجتمعين، وإن لم تكن ثمة ضرورة إلى السؤال فإنه لم يلق بالاً إلى الجواب، فتقدم ماسح أحذية وسائق لوري وصبي كبابجي كان عائداً بصينية فارغة، وأعادوا على مسمع الضابط ما حدث منذ ما كان الرجل المجهول يتكلم في التليفون. وجاءت سيارة الإسعاف وأحاط رجالها بالرجل، وتفحصه رئيسهم بعناية وحذر وهو يجلس القرفصاء، ثم نهض متوجهاً إلى الضابط فبادره هذا قائلاً: "أظن يجب نقله إلى الإسعاف"، وعندما أُرْقِدَ الرجل بحجرة الفحص في مستشفى الدمرداش، "عملية"! فهز رأسه قائلاً: "إنه يحتضر"! وجاء ضابط النقطة والرجل ما يزال راقداً بكل ملابسه، وقال الطبيب: "هذه الحوادث لا تنتهي"، وشرع في عمله على حين يسط له الشاويش المراافق له ورقة فوق منضدة، وألقي نظرة عابرة على أسماء الأدوية، ولما لم يجد شيئاً آخر في الحافظة قال بضمير: "لا توجد بطاقة تحقيق شخصية"، فأمل أن يصادف فيها ما يستطيع أن يستدل به على شخصية الرجل. فعاد إلى رأس الصفحة ولكن الرسالة كانت موجهة إلى أخي العزيز أダメه الله" فاستاء من هذه المعاندة ولم يجد بدعاً من قرائتها. وامتد بصره فوق الوجه الأسطر إلى الوجه الباهت المشئوب بزرقة مخيفة المغلق كسر، فانتبه إلى نفسه وابتسم ابتسامة إستهانة ليدل على اعتياده أي شيء وقال "اليوم تحقق لي أكبر أمل في الحياة" بذلك بدأت الرسالة وعاد إلى القراءة متجنباً للنظر إلى عيني الطبيب، أمينة وبهية وزينب في بيوطهن، وهذا هو النصر، المبين" ، وبعد تفكير طويل